OPEN ACCESS
Received: 26 -04 -2025
Accepted: 17- 07-2025

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Death in *If the Night Drowns Me* by Abdullah al-Fayfi: A Stylistic Study

Dr. Marwaie Bin Ibrahim Bin Musa Al-Mahaili *

dr.marwaie@outlook.sa

Abstract

This paper examines Abdullah al-Fayfi's poetic vision of death in his debut collection *If the Night Drowns Me*, where death emerges as a pervasive theme articulated through abundant vocabulary, imagery, and symbolism. Using a stylistic approach, the study analyzes three dimensions: the lexicon of death, the binary opposition of life and death, and the personification of abstractions. The findings demonstrate that al-Fayfi constructs a dialectic in which death is intricately interwoven with life, freedom, triumph, and abstract concepts, producing creative oppositional binaries. The collection presents multiple poetic scenes of death, including the martyrdom of a Palestinian child, the biblical narrative of Cain and Abel, and the experience of orphanhood. Furthermore, the personification of abstract entities—treated as living beings subject to death—reveals the poet's strategy of imbuing abstractions with vitality and then withdrawing it to heighten symbolic significance. This stylistic employment positions death not merely as an endpoint but as a generative force that reshapes poetic meaning and enriches the thematic structure of the collection.

Keywords: Life and Death, Saudi Poetry, Lexicon of Death, Poetic Discourse.

* Associate Professor of Literature, Administrative and Humanities Department, Applied College in Muhayil Asir, King Khalid University, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Mahaili, M. I. M. (2025). Death in *If the Night Drowns Me* by Abdullah al-Fayfi: A Stylistic Study, *Arts for Linguistic & Literary Studies, 7*(3): 126 -138 https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2779

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2025/04/26م
تاريخ القبول: 2025/07/17م

الموت في ديوان (إذا ما الليل أغرقني) لعبدالله الفيفي: دراسة أسلوبية

د. مروعي بن إبراهيم بن موسى المحائلي*
dr.marwaie@outlook.sa

الملخص:

يسعى البحث للكشف عن رؤية الشاعر السعودي عبدالله الفيفي لظاهرة الموت، في ديوانه (إذا ما الليل أغرقني)، بصفته باكورة شعره المنشور، إذ يجد المتأمل فيه الكم الوافي من الألفاظ والإشارات والمعاني الدالة على الموت، وجاء هذا التوظيف عاكسًا لرؤى الشاعر وحدسه الفني، وقد أسبغ ذلك على الديوان طابعا مغايرًا تجلى في طرحه لتناول الموت شعريًا من خلال عدة تساؤلات كشف عنها النص الشعري. وقد اعتمد على وصف هذه الظاهرة، متوسلاً المنهج الأسلوبي، وقُسِم البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث، هي: ألفاظ الموت، وثنائية الموت والحياة، وموت المجردات، وقد توصل البحث إلى أن ثنائيات الحياة والموت تجلت في ديوان (إذا ما الليل أغرقني)؛ عبر صور التعالق والتواشج بين الموت من جهة والحياة والحرية والانتصار وبعض المجردات من جهة أخرى؛ ليكون ثنائيات ضدية خلاقة. وتعددت مشاهد الموت في الديوان، وقف البحث منها على: استشهاد الطفلة الفلسطينية، وقابيل وهابيل، واليتم، وغيرها، ويظهر أسلوب التشخيص للمجردات في الديوان، بصفتها كائنات حية يجري عليها الموت كما يجري على الأحياء، وهو بهذا التوظيف يبث في المجردات روح الحياة ثم يفرغها منها؛ في سبيل بلوغ الدلالة المرجوة.

الكلمات المفتاحية: الحياة والموت، الشعر السعودي، ألفاظ الموت، الخطاب الشعري.

* أستاذ الأدب المشارك، وحدة التخصصات الإدارية والإنسانية، الكلية التطبيقية بمحايل عسير، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: المحائلي، م. ب. إ. ب. م. (2025). الموت في ديوان (إذا ما الليل أغرقني) لعبدالله الفيفي: دراسة أسلوبية، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *7*(3): 126- 138 https://doi.org/10.53286/arts.v7i3.2779

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة:

الموت ظاهرة حياتية، وهو سر من أسرار الحياة، وهو ظاهرة حتمية الحدوث على كل نفس، ولذلك فهي ملازمة للحياة، قال تعالى: "كل نفس ذائقة الموت"[الأنبياء: 35]. ومن هنا فإن الموت هو المصير المحتوم على كل حي مهما طال عمره أو اختلف دينه أو مذهبه، ولذلك نجد أن الموت كان وما زال يشغل تفكير الناس مهما اختلفت نظرتهم إليه، ما دفعهم إلى التأمل فيه والسعي إلى سبر أغواره والكشف عن أسراره والنظر إلى ما وراء الموت، ولا غرابة في ذلك؛ فالإنسان يبحث عن الخلود أو ما يسمى فكرة البقاء. ولذلك شُغِلَ العقل الإنساني بظاهرة الموت منذ القِدَم.

ويأتي تتبع هذه الظاهرة في ديوان الشاعر عبدالله الفيفي استجابة لما أثارته القراءة الأولية لبعض قصائد الديوان من تساؤلات عن منظور الشاعر للموت وكيفية توظيفه من منظور شمولي يستكشف بواعث رؤيته لتلك الظاهرة في شعره. وقد توسل البحث بالمنهج الأسلوبي في تناوله لهذه الظاهرة وتحليل بعض شواهدها، لأنه الأنسب في كشف الكيفية التي تشكل بها الموت في الديوان. والجدير بالذكر أنه لا توجد دراسة علمية تناولت ديوان الشاعر عبدالله الفيفي المعنون بـ "إذا ما الليل أغرقني" بشكل عام، كما لم يتم تناول ظاهرة الموت في شعره بالرغم من وجود ثلاث دراسات تناولت شعره بشكل عام، وهي:

- "ملامح إبدال التشكل الشِّعري الحديث بالعمودي في التجربة الشِّعريَّة السعوديَّة المعاصرة: شِعر (علي الدميني- عبدالله الفَيْفي- عبدالرحمن المحسني) نموذجًا"، حسن بن شريف بن علي المالكي، رسالة ماجستير، أبها: جامعة الملك خالد، 2017م. ولم أجد فيها ما يفيد موضوع بحثي.

- "التناصُّ في شِعر عبد الله الفَيْفي"، ابتسام شاهر البلوي، رسالة ماجستير، الرِّياض: جامعة الإمام محمَّد بن سعود، 2014م. ولم أجد فيها ما يفيد موضوع بحثي.

- "عبدالله الفَيْفي: شاعرًا"، كليم الله وحيد، رسالة ماجستير، باكستان- إسلام أباد، الجامعة الإسلامية العالمية، 2008م. وقد أفدت منها في بحثي.

إضافة إلى دراسة ظاهرة الموت في ثنايا دراسات عديدة، كما توجد دراسات عديدة تناولت هذه الظاهرة عند شاعر بعينه، وقد استفدت من بعضها في هذا البحث وأشرت إليها في قائمة المصادر والمراجع.

التمهيد:

الموت في اللغة: جاء في لسان العرب: "الموت خلق من خلق الله تعالى، ... الموت والموتان ضِد الحياة، والموات بالضم: الموت، مات يموت موتًا ... والموت السكون، وكل ما سكن فقد مات "(ابن منظور، 1999: مادة م و ت). ويُقال: "مات يموت ويماتُ ويميتُ، فهو مَيْتٌ ومَيِّتٌ: ضِد حي" (الفيروز آبادي، 2005: مادة موت). و"الميم والواو والتاء أصلٌ صحيح يدلُّ على ذهاب القوة من الشيء منه الموتُ: خلاف الحياة" (ابن فارس، 2002: 5/ 227). والموتان: "الأرض لم تحي بعد بزرع ولا إصلاح، وكذلك الموات"(ابن فارس، 2002: 5/ 227). و"الموت صفة وجودية خُلقت ضد الحياة"(الجرجاني، 2004، ص 199).

الموت في الاصطلاح: يذكر القرطبي تعريفًا للموت فيقول: "الموت ليس بعدمٍ محض، ولا فناء صِرف، وإنما هو انقطاع تعلُق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار"(القرطبي، 1964: 18/ 206. والقرطبي، 1425، ص 4). ويذكر الطبطبائي أن الموت هو: "فقد الحياة وآثارها من الشعور والإرادة بما من شانه أن يتصف بها" (الطباطبائي، 2008، ص13).

وتنحو كتب التفسير إلى أن الموت "هو عدم اتصاف الجسم بالحياة سواء كان متصفًا بها من قبل -كما هو الإطلاق المشهور في العُرف- أم لم يكن متصفًا بها إذا كان من شأنه أن يتصف بها" (ابن عاشور، 1997، ص 376).

ويقول سقراط إن "الموت قد يكون خيرًا من الحياة" (شورون، 1984، ص 47)، وذلك لأن الموت سينقل الميت إلى الوجه الآخر من الحياة، وذلك للبعد عن الشقاء والبؤس. أما أفلاطون فيقول: "إن الموت انعتاق النفس من الجسد" (شورون، 1984، ص 52). وهو يرى "أن الفلسفة هي تأمل الموت، وهي عبارة توحي بأن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي تثير لدى الفيلسوف شتى ضروب التأمل، فتدفعه إلى النظر في أسرار هذا الوجود، والبحث عما يكمن وراء ظواهر الحس" (إبراهيم، 1962، ص 66).

وقد اختلفت نظرة الناس للموت بناءً على عدة عوامل منها: بيئية ونفسية ودينية وفلسفية. وقد تساءل جيمس كارس عن كيفية التعرف على الموت والطريقة التي يبدو لنا بها وخلص إلى أن "الإجابة الواضحة على تلك هي أننا نجرب الموت في موت الآخرين" (كارس، 1998، ص 4). ومهما يكن من الأمر "فإن المعرفة بحتمية الموت قد غدت . شيئًا فشيئًا . ملكية مشتركة للإنسانية، ومن ثم فلا يمكن النظر إليها بوصفها اكتشافًا جاء كالحادث الفجائي"(شورون، 1984، ص 17).

وبالنظر إلى الشعر العربي نجد أن الشاعر -منذ القِدم- حاول توظيف ظاهرة الموت من خلال رسم صور الميت، بالإضافة إلى وصف شوق الشعراء للميت، وتجسد ذلك بصورة جلية في فن الرثاء، ووصف المعارك وما يتخللها من قتل؛ لذلك فقد "حفلت الدواوين الشعرية منذ العصور القديمة بموضوع الموت، الشاعر أحيانًا يشير إلى الموت من خلال استخدام ألفاظ تدل على الموت مباشرة، وأحيانًا أخرى يستخدم ألفاظ تأويلها يدل على الموت تلميحًا، وكان الشاعر يتأثر بدين أو مذهب أو فلسفة أو معتقد، ومن خلال تلك المؤثرات يشكل الشاعر نظرته إلى الموت في إبداعه الشعري. ونجد موضوع الموت من الموضوعات المكررة عند الشعراء والأدباء بصفة عامة أكثر مما نجده عند الفلاسفة. والموت بإجماع الشعراء تقريبًا محتم ولا مفر منه (الجمل، 2003، ص 84).

وقد لاحظ ميلود قيدوم "أن الشعراء جميعهم يتفقون على أن الموت لازمة لهذه الحياة، لكن التعبير عن موت النفس والآخر (في التشكيل الفني) يختلفون فيه، ويختلفون في نقله وتصدير معاناتهم إلى الآخر" (قيدوم، 2014، ص 77).

وانطلاقًا من منظور الشعراء يسعى هذا البحث إلى رصد ظاهرة الموت في ديوان "إذا ما الليل أغرقني" للشاعر عبدالله الفيفي، والوقوف على بعض شواهد توظيفه لهذه الظاهرة، وتتبع أشكال تجلياتها في شعره.

المبحث الأول: ألفاظ الموت

وظف عبدالله الفيفي في ديوانه "إذا ما الليل أغرقني" ألفاظاً عدة تدل على الموت أو ما بعد الموت، مثل: يتيمة، الثكلى، بالإضافة إلى استخدام كلمة (القدر) بمعنى الموت. كما استعمل كلمات، مثل: القتل، ممات، الموت، تموت، مات.

لقد وظف الشاعر لفظ (القدر) بمعنى الموت، عندما صور السماء التي تنزل المطر بأنها تصب فوق رؤوس اليهود المعتدين الموت، فالسماء تصب عليهم حجارة تكون نتيجتها المؤكدة موت اليهود المعتدين، وكأن الشاعر، في هذه الأبيات، يفرغ ما فاضت به نفسه من حقد وكره لليهود، باختياره الألفاظ التي يتمنى إسقاط مكنونها وفعلها عليهم، فيأتي بلفظ القدر علَّه يحقق هدفه وأمنياته بأن يداهمهم الموت، فكأن اللفظ يأتي ليوافق الطموح، أي أنه في تخيره لهذا اللفظ يعبر عن شدة كرهه للعدو، لهذا نجده يستغيث بـ (القدر)؛ ليحقق ما عجزت آلة المقاومة عن تحقيقه، فينتقم للضحايا، ويطهر الأرض من العدو. بالإضافة إلى ذلك فإن الشاعر يرمز "بكلمة (الحجر) للمقاومة الشعبية الإنسانية في مواجهة أعدائها المستبدين المتوحشين التي أنتجت الانتفاضة العربية الفلسطينية، حيث تثمر جراح الأرض ما وعدت به من القدر الماثل في الحجر فتنزل الثمار في صورة مطر كالحجارة التي تنصب على رؤوس المعتديين"(وحيد، 2008، ص 121)، حيث يقول:

حجرْ:
وتثمر الجراحُ وعدها..
وتنزل المطرْ
تصب فوق رأس المعتدي القَدَرْ! (الفيفي، 1990، ص 46).

ويوظف الشاعر لفظ (يتيمة) في وصفه للطفلة (دلال)؛ فوالدها مات، وأمها هي التي ترعاها، وكانت (دلال) تشعر بمأساة أمها ومعاناتها. فالموت عندما يزور بيتًا يأخذ معه أشياء كثيرةً ويستبدلها بالفقر والجوع والخوف والشقاء والتعب، كما حدث عندما زار الموت بيت (دلال) ونزع منه روح والدها. الشاعر هنا يصف ما يفعله الموت بحال الأطفال والزوجة (الأم)، ويعقد مقارنة تحمل الأسى حين يلفت النظر إلى الربيع حول دلال، بما يحمله من نضارة وخضرة وزهو، بينما تقف الطفلة تنظر إلى ذلك الربيع من موقعها الذي تحول إلى الأسى والفقر بعد أن كانت تحمل دلالات أسمى قبل أن يموت والدها، فدلال تحول حالها من حال الربيع – كما هو حال باقي أقرانها – إلى حال غيره؛ نتيجة فقد الأب الذي غيبه الموت، ولفظ (ترى) تجبر المتلقي على عقد المقارنات بين دلال اليتيمة وغيرها من الفتيات اللواتي يعشن في كنف والدهن.

هذه المقارنة تهدف إلى تسليط الضوء على تحول حال الأسرة، وتعظيم هيبة الموت، وما فعله بدلال وغيرها من اليتامى، وذلك في قوله (الفيفي، 1990، ص 71):

كانـــت يتيمـــة والـــدٍ لـــم يرعهـــا والأم أشـــقى مَـــن رعاهـــا مَولِـــدا
كانت (دلال) تُحِسُّ مأساة امّها وتـــرى حَوالَيهـــا الربيـــعَ زَبَرْجَـــدا

ويتكئ الشاعر على أسلوب أشبه ما يكون بقلب الحقائق؛ بهدف تصوير عِظَم التضحية، والتفاني في الفداء، واعتزاز الأهل بشهيدهم، نجد شيئًا من هذا في قول الشاعر (الفيفي، 1990، ص 98):

فَمَّـــى يَعْرُبِيًّـــا.. قَـــدَّ رُمْـــحَ إيابِهـــا مِـــنَ العَـــزمِ.. لـــم يَجْمُـــدْ.. ولـــم يَتَرَقـــرَقِ
يُعِيـــدُ علـــى الثَّكْلَـــى الـــرؤُوْمِ أُمُوْمَـــةً ويُغشِـــي قمـــيصَ النـــورِ غَهـــبَ أحْـــدُقِ

الأم الثكلى هي الأم التي فقدت الأمومة؛ لأن الموت غيب أحد أبنائها، غير أن الشاعر - في هذه الأبيات- أعاد للثاكل إحساسها بالأمومة، ولعل في هذا دلالة على أن للموت في نظره بعثاً لحياة عز ترتبط بما خلفه الفقيد من مآثر، وما تستشعره الأم من اعتزاز وافتخار بتضحية ولدها، وما تلقاه من تقدير في مجتمعها وهذا يجعل التضحية في نظرها تخليدًا لحياة العز والإباء، فالشاعر يوظف لفظة (الثكلى) عندما يصور ذلك الفتى اليعربي الذي "لم يجمد... ولم يترقرق"، وهو أسلوب تضاد يفيد الثبات، فصفاته دائمًا التقدم؛ ولذلك لم يتوقف ولم يتقهقر عن معتقداته.

المبحث الثاني: ثنائية الموت والحياة

إن الموت والحياة خلق من مخلوقات الله تتجلى من خلالهما القدرة الإلهية الدالة على وحدانية الله وعظمته وقوته وسطوته على كل مخلوقاته؛ إذ حكم عليهم بقوله " كل شيء هالك إلا وجهه"[القصص: 88]. وقد "أوثر بالذكر من المخلوقات الموت والحياة؛ لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان الذي هو أعجب الموجود على الأرض والذي الإنسان نوع منه، وهو المقصود بالمخاطبة بالشرائع والمواعظ؛ فالإماتة تصرف في الموجود بإعداده للفناء، والإحياء تصرف في المعدوم بإيجاده ثم إعطائه الحياة؛ ليستكمل وجود نوعه، والموت مكروه لكل حي، فكانت الإماتة مظهرًا عظيمًا من مظاهر القدرة؛ لأن فيها تجلى وصف القاهر"(ابن عاشور، 1997، ص 12، 13).

وقد شُغِل الكثير من المفكرين والفلاسفة والأدباء باقتران ظاهرة الموت بظاهرة الحياة، وهذه الفكرة خلصت إلى أن الموت والحياة وجهان لحقيقة واحدة، أو أن ما بعد الموت هو امتداد لما قبل الموت، يتضح ذلك من أن استحضار أحدهما يستدعي استحضار الآخر بشكل غير مباشر، ويظهر هذا التلازم أو الاستدعاء بشكل واضح عند البحث في المعنى اللغوي للفظ الموت أو لفظ الحياة، كما رأينا في تمهيد هذا البحث.

إن "الموت فعل فيه قضاء على كل فعل وأنه نهاية للحياة، فقد تكون هذه النهاية بمعنى انتهاء الإمكانيات، وبلوغها حد النضج والكمال، كما يقال عن ثمرة من الثمار أنها بلغت نهايتها، بمعنى تمام نضجها، واستنفاد إمكانيات نموها، وقد تكون هذه النهاية بمعنى وقف الإمكانيات عند حد، وقطعها عند درجة مع بقاء كثير من الإمكانيات غير متحقق بعد، فيكون الموت بذلك حالة من حالات الحياة" (بدوي، 1962، ص 5-18)، وهو ما ينسجم مع ما جاءت به الشرائع والديانات، ولذا فهي تقدم تفسيرًا يزيل القلق الذي يثيره التفكير في الموت، بالإضافة إلى أنها تمنحه رؤية أو معرفة بالطريق الذي سيسلكه بعد نهاية الحياة.

وقد تجسد حضور الحياة والموت في ديوان عبدالله الفيفي في كثير من القضايا التي وقف عليها في شعره، حيث عايش القضية الفلسطينية بمناحيها الكثيرة، وتمثل مأساة الشعب والأمة، فجاء حديثه عنها تعبيرًا صادقًا لامس مشاعر كل شخص غيور شاهد على هذا الصراع وتلك المعاناة، فأراد من خلال ديوان "إذا ما الليل أغرقني" أن يسلط الضوء على هذا الأمر، حيث لم يغب الموت عن أي بيت فلسطيني على مدار عقود عدة. وقد وظف عبدالله الفيفي ثنائية الموت والحياة في فكرة استشهاد الطفل الفلسطيني المستمدة من العقيدة الإسلامية، وفكرة الغربة عن الوطن، وفكرة العشق، وفكرة التراسل بين الحياة والموت.

يقول عبدالله الفيفي، في قصيدته (في محفل العمر):

"أين ابنتي...؟! "
والأم تدري أين بنتها
لقد مضت شهيدة..
كما مضى بالأمس صنوها
يا ثكل أُمٍّ كل يوم ثكلها!
لكنها..
من فورها..
عادت تُعِدّ الخبز للمقاتلين
وسارت تحمل الخبز إلى الثغورْ
نشوانةً يكاد قلبها يطيرْ
تقول:
"هاكم زادكم ولتبعثوا غدًا من يحملهْ"
وفي ازدهاء:
"إن ابنتي قد زُفّت المساءْ
في عرسها العظيمْ

لو تنطق الأشياءُ.. (الفيفي، 1990، ص 64، 65).

يتكون هذا المقطع من صوتين، الصوت الأول: هو صوت الأم الفلسطينية الثكلى، والصوت الثاني: هو صوت الشاعر الذي يصف لنا المشهد. ويستهل الشاعر هذا المقطع بسؤالٍ على لسان الأم الفلسطينية الثكلى " أين ابنتي...؟!" فيرد صوت الشاعر بأن المرأة تعلم أن بنتها قد "مضت شهيدة"؛ فهي ليست أول شهيدة في العائلة، فقد مضى أخوها شهيدًا بالأمس، ثم ينوح الشاعر على هذه المرأة الفلسطينية "يا ثكل أمٍ كل يوم ثكلها!"، ثم يعود الشاعر ليصور لنا قوة المرأة الفلسطينية، فقد تقبلت الوضع وعادت تصنع الخبز للمقاتلين الثائرين، وهي توصل الخبز للثوار، وهي في غاية السعادة "نشوانة يكاد قلبها يطير".

ثم يظهر صوت المرأة الفلسطينية من جديد، وهي تحث الثوار على أن يبعثوا غدًا من يجلب لهم الخبز، وذلك بسبب "أن ابنتي قد زفت المساء في عرسها العظيم" كناية عن استشهادها؛ فالموت يتحول في الثقافة الفلسطينية إلى رمز خاص يتخلى فيه الموت عن حقيقته المخيفة؛ ليتحول إلى يقين بالفرح والسعادة المبنية على الفكر الإسلامي (الشهادة)، فقد ساهمت معاناة الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة في إيجاد نسق خاص يعزز استعمال المعجم الشعري لثنائية الموت والحياة في الوطن المحتل؛ فالوطن الفلسطيني المحتل يمنحهم الموت بدلاً من الحياة، ويمنحهم الشهادة، وهذا عزز في نفوسهم تلقي خبر الموت بإيمان تام؛ فهو لم يمت حقيقة، بل إن شهداءه أحياء يزفون إلى الجنة، و"هذا يشير إلى أن مبدأ الفناء معدوم تمامًا في العقيدة الإسلامية" (الجمل، 2003، ص 4).

كما يشير إلى أن الموت يمثل الخلاص لدى الشعب الفلسطيني، فـ "هناك فلسفة مشهورة تقول: إن الروح تعاني في حياتها من سجنها داخل الجسد، ولا تتحرر منه إلا بالموت الذي يطهرها من خبث الجسد" (أبو كراع، 2021، ص 160)، وهو ما يمثل فكرة الانتصار على قيود الحياة إلى سعادة الآخرة.

ويظهر الفكر الإسلامي في المقطع السابق؛ فالإسلام أزال قلق الإنسان وآلامه، ولذلك وضح له مبدأ الخلود المطلق في نعيم الجنة؛ ففي العقيدة الإسلامية فكرة البعث والنشور تُعد ركنًا رئيسًا فيها، وهذه الفكرة تزيل حالة اليأس أو الحزن من العدم أو الفناء؛ لأن "فكرة البعث بعد الموت واليوم الآخر والحساب والعقاب والجنة والنار هي من الحقائق الثابتة في الإسلام" (الجمل، 2003، ص 5).

ويستهل الشاعر قصيدته المعنونة بـ(اغتراب) بلفظة تكشف عن رغبته في زيادة الرفق والحنان به "حنانيك"، ثم يطلب الترفق ممن يخاطبه، وينهاه عن فتح الجراح، جراح الاغتراب عن الأوطان، ويلاحظ أن الشاعر وظف أسلوب التكرار في عبارة "إن هوى الأوطان" التي كررها ثلاثًا في بيتين، وهو ما يؤكد قوة تعلق الشاعر بوطنه، وهذا التكرار يمثل حب الشاعر وتعلقه بوطنه؛ ليسمو به هذا الحب إلى درجة وحدة المصير؛ فهذا الهوى هو محور هذه الأبيات، ولذلك فإن بقاء "هوى الأوطان مبقيك ما بقي"، ففي هذا البيت تظهر فكرة البقاء من أجل البقاء، أما البيت الثاني فتظهر فيه ثنائية الفناء التي تمثلها كلمة "قاتلي" والحرية التي تمثلها كلمة "معتقي"، وذلك يتضح في قول الشاعر (الفيفي، 1990، ص 98، 99):

حنانَيــــكَ.. لا تَنْكَــــأ فـــــؤادي.. تَرَفَّـــــقِ فـــإنّ هَـــوَى الأوطـــانِ مُبْقِيـــكَ مـــا بَقِـــي

وإنّ هَـــوَى الأوطـــانِ يـــا صـــاحِ قـــاتِلِي وإنَّ هَـــوَى الأوطـــانِ يـــا صـــاحِ مُعْتِقِـــي

يتناول الشاعر، في هذه الأبيات، فكرة الموت، بصبغة جديدة، تتمثل في أنه لا يعني الفناء، بل هو الخلود؛ فالموت من أجل حب الوطن هو الخلود والبقاء الدائم ما بقي هذا الوطن. ولذلك نجده يتوق إلى الموت المعادل للخلود، ونجد أنه

بذلك متأثر "بالشعراء الرومانتيكيين الذين أحبوا الموت وتأملوه، وطربوا لمشاهدة القبور"(سلامة، 1977، ص 120). فالشاعر يرى أن الموت من أجل الوطن هو الشرف، وبالتالي هو الخلود.

ويستعمل الشاعر ثنائية الموت والحياة مرتين في نصين مختلفين، ورد الأول في المثال السابق، حاملاً معنى الشمول إذ تفانى الشاعر في حب محبوبته في حالتي الحياة والممات. وكأن الشاعر هنا يعلن على نفسه الالتزام بهذا الحب وهو حي وسيبقى وفيا له في مماته، إشارة منه إلى حياة أخرى بعد الموت، وقد دل ذلك على الإخلاص والوفاء، وبعث في نفسية المتلقي حيرة ودهشة، إذ كيف سيبقى محبا في مماته! ليتبادر للذهن إشكاليات عدة هدفها بعث كيف لهذا القلب كل هذا الحب، وأي محبة في فضاء هذه النفس؛ لترافقه حتى مماته.

وفي قصيدة (عندما أُمسي بعيدًا) يقف الشاعر على هذه الثنائية مرة أخرى، حيث يقول (الفيفي، 1990، ص 18):

قـــــــد تفانيـــــــتُ بحبـــــــي فـــــــي حيـــــــاتي ومـمـــــــاتي
وأظـــــــن الوجـــــــد لا يـــــــف (م) نـــــــى بجســـــــمي أو رفـــــــاتي

استعمل الشاعر لفظة (أظن) التي تحمل معنى الشك؛ فهو يشك بأن الحب لا يقوم بإفناء جسم الشاعر، وثنائية الجسم والرفات هي ذاتها ثنائية الحياة (الجسم) والموت (الرفات)، ويعمق المعنى في البيت الثاني حين يلذع في ذهن المتلقي تأكيدات على بقاء هذا الحب وعدم اندثاره واستمرار نهجه وأسلوبه المحفز للتساؤلات والحيرة حين يفي بوعده أن هذا الحب مستوطن جسده في حياته ومستوطن رفاته بعد موته؛ ليصل إلى عقل المحب الذي يسيطر عليه الحب في حضوره وغيابه؛ فثنائية الحضور والغياب عنده معتمدة على حياته وجسده، ومعتمدة على فنائه ورفاته، وفي كلتا الحالتين فإن قلبه المعلق في الحب على حاله وصورته؛ وذلك أنه متمسك بهذا الحب.

وفي موقف آخر يستعمل الشاعر ثنائية الحياة والموت مرتين متضادتين، في قوله (الفيفي، 1990، ص 24):

ولربمـــــا كـــــان الممـــــات حيـــــا (م) ة.. والحيـــــاة مماتـــــة الأبـــــد

صدر الشاعر البيت بلفظة (ربما) التي تحمل معنى الشك لا اليقين، ليؤكد أن الشاعر مضطرب ومتشكك في حقيقة هذه الثنائية، ومن هنا نجد أن الثنائية الأولى: الموت يصبح هو الحياة، والثنائية الثانية الحياة تصبح هي الممات، والشاعر ينظر إلى هذه الثنائيات في حقيقتها نظرة فلسفية دينية.

ويتضح هنا أن المعادلة التي ينوي الشاعر أن يلفت النظر إليها هي أن الموت لا ينهي الحياة في بعض المواقف؛ لأن الخلود في الحياة -أحيانا- يكون بعد موت الجسد، هذا التناقض دافعه أن ننظر من حولنا كم من الأحياء لو كانوا أمواتا لكان موتهم حياة لهم، وكم من الأموات من أصحاب الصنع الرائع قضوا نحبهم وما زال ذكرهم يحييهم.

وينظر عبدالله الفيفي إلى الموت بصفته المخلص أو المعادل للانعتاق والحرية والانتصار (الفيفي، 1990، ص 56، 57):

ورأيـــــتُ قابيـــــل بـــــن آدم مُشْـــــرِعًا بـــالموت صـــدر أخيـــه مشـــبوبَ الســـعارْ!
: إنـــي أنـــا قابيـــل وحـــدي هـــا هنـــا ســـأدمّر الـــدنيا.. ودنيـــاي انتصـــار!
ورأيـــتُ أنســـال الفنـــاء مـــن الحصـــا (م) ة إلـــى النـــواة وعصـــر فُجـــرٍ وانفجـــار!

يصدر الشاعر في هذه الأبيات عن فكرة ترى أن الموت هو أول مراحل الحرية والانعتاق من القيود، لذلك عندما صور هذه الفكرة في الصراع بين قابيل وهابيل جعل بقاءه مرهونًا بالنصر. علمًا أنه صور مشهدين في كليهما يستهل بعبارة (ورأيت).

ففي المشهد الأول يستعين الشاعر بالتناص، وذلك من خلال قصة أول جريمة قتل في التاريخ وهي قصة مقتل (هابيل بن آدم) على يد أخيه (قابيل بن آدم). ومن الملاحظ أن الشاعر يشهد هذه الجريمة في قوله: (ورأيت)، وفي البيت التالي يستمر الحديث عن قصة قابيل وهابيل ولكن بعد الجريمة، وهنا نلاحظ أن الشاعر استعمل أداة التوكيد (إن) المتصلة بياء المتكلم، واستعمل ضمير المتكلم(أنا) ليبين قوة الاتصال بين شخصية الشاعر وشخصية قابيل؛ لذلك فإن الشاعر وقابيل هما شيء واحد.

ونلاحظ في هذا البيت الأنا المتضخمة؛ لذلك فالشاعر يؤكد أنه هو وحده قابيل بما تحمله صورة قابيل من القوة والبطش والقتل حتى لأقرب الناس له، ثم يستمر الشاعر في فكرته التي يسعى إليها وهي تدمير الدنيا، ويؤكد على قدرته على هذا الفعل القبيح بعبارة "ودنياي انتصار"، وفي المشهد الثاني: يرى الشاعر/ قابيل سلسلة الموت الذي انسل من الحصاة إلى النواة، كما يرى الشاعر/ قابيل "عصر فُجرٍ وانفجار"، غير أن الشاعر عبدالله الفيفي مثله مثل بعض الشعراء الذين يرون أن " في الموت مشاهد للطهارة الروحية والجسدية، والغالب عندهم أن في الموت طهارة للروح"(أبو كراع، 2021، ص 160).

وفي قصيدة أخرى يكرر الشاعر لفظة (مات) أكثر من مرة في بيتين، ففي المرة الأولى استعمل "تجتس نبضاً مات" والصواب نبضٌ توقف، إن الموت عند الشاعر هو معادل للثبات أو التوقف، إلا أن يد الشاعر تتحرك وتجس النبض الذي شخصه الشاعر، غير أنه نبض لم يلد، ولكنه قد مات، وتظهر هنا ثنائية الثبات والحركة، فالنبض (ثابت) بينما يد الشاعر (متحرك).

وفي المرة الثانية والثالثة تظهر ثنائية الشك المبنية على النفي(ما مات) واليقين (بل ماتت عليه يدي) وبينهما تظهر فكرة التحول والانتقال، فالموت الذي يمثله توقف نبض الآخر قد انتقل إلى يد الشاعر التي تمثل اليقين (بل ماتت عليه يدي)، ثم ينتقل الشاعر إلى الشك مرة أخرى عندما جعل للموت، وهو من المجردات، مذاقا، فقال (طعم الموت)، لأن الشاعر هنا يسعى إلى تقريب المجردات إلى ذهن المتلقي، فالموت يمكن إدراكه عبر حاسة التذوق، والشاعر يعزز الصورة الذوقية باستعمال أسلوب التشبيه، فـ(طعم الموت كالبرد)، وذلك في قوله (الفيفي، 1990، ص 21):

طـــارت شـــعاعًا مُهجتـــي.. ويـــدي تجـــتسُّ نبضًـــا مـــات.. لـــم يَلِـــدِ!
مـــا مـــات.. بـــل ماتـــت عليـــه يـــدي، أم أن طعـــم المـــوت كـــالبَرَد؟!

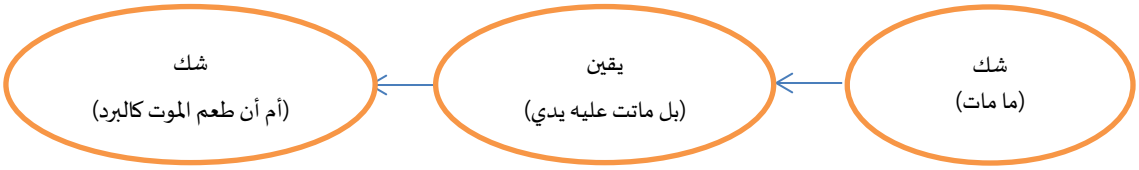

يمكن القول إن عبدالله الفيفي يميل إلى الاستعانة بالأسلوب القصصي في رسم مشهد الأم الفلسطينية الثكلى، ولعل ذلك يعود إلى ما للسرد من قدرة على وضع المتلقي أمام مشهد يتحرك أمامه، يقربه إليه ويوهمه بواقعيته، كما وظف أسلوب التكرار، وثنائية الحياة والموت في رسم صوره الشعرية، وتظهر فكرة البعث والنشور في شعره بشكلٍ جلي، بالإضافة إلى استعمال الصورة الذوقية (للموت) بالرغم أنه من المجردات.

المبحث الثالث: موت المجردات:

وصف عبدالله الفيفي مجموعة من المجردات بالموت، مثل: الثواني، والخير، والروح، والحاضر... وكل هذه المجردات يجري عليها ما يجري على الكائنات الحية، وهذا الاستعمال له مغزى بلاغي؛ يهدف من خلاله إلى التعبير عن خلجات نفسه

باستعمال هذه المجردات وما تثيره في نفس المتلقي (مقدسي، 1952، ص 323). نجد مثل هذا في قصيدته (شوق) التي يقول فيها (الفيفي، 1990، ص 78):

تمـــوت الثـــواني انتظـــارَ انتظـــارٍ علـــى عتبـــات نـــوى المنتظـــرْ

وروح تنـــادي صـــداها.. ولـــولا صـــداها لماتـــت.. ومـــات الخَبَـــرْ

يستعمل الشاعر أسلوب التكرار، حيث كرر كلمات (تموت، ماتت، مات)، بنفس المعنى وإن اختلف المدلول الزمني، فالأولى: (تموت) فعل مضارع يفيد الحدوث الآن، والثواني وهي من المجردات تموت على عتبات انتظار العاشق، وفي هذا دلالة على ديمومة الانتظار وملازمة الإحساس بقسوة الانتظار حد الموت. أما الثانية والثالثة: فتحملان معنى الماضي وتفيدان الحدوث والانتهاء، غير أن الشاعر استدرك عدم وقوع حتمية الموت للروح التي تنادي صداها "ولولا صداها لماتت"، فالصدى هو المنقذ لتلك الروح من الموت، وكذلك هو الناقل للخبر، وقد استخدم لفظ (لولا) للانتصار على الموت وإبقاء نافذة الأمل مشرعة على الحياة.

ويرسم الشاعر صورة للشِعر، فهو عنده معادل لكاسات الخمر يحتسيها "كلما الباغي اعتدى"، وهذه الخمرة تمتاز بأنها "دون نشوى"، ولهذا وظف الشاعر أسلوب الاستفهام، للسؤال عن سبب ذلك، هل هو بسبب فقد الخمر مفعوله، أم أن الروح ماتت ولم تعد تستلذ بشيء؟ "أهي الراح أم الروح ماتت"، والنتيجة لهذا الاستفهام "فإذا الراح سُدى؟!"، إن الموت هنا متلبس بأحدهما أو بكليهما، وذلك في قوله (الفيفي، 1990، ص 10):

إنمـــا ذا الشـــعر كاســـاتُ الطـــلا نحتســـيها كلمـــا البـــاغي اعتـــدى

دون نشـــوى، أهـــي الـــراحُ أم الـــر (م) وحُ ماتـــت.. فـــإذا الـــراح سُـــدى؟!

ويرسم الشاعر صورة لواقع الحال عبر الجمع بين الموت والجمال والقبح، في قوله (الفيفي، 1990، ص 29):

والحاضـــر الغـــضُّ الإهـــا (م) ب يمـــوت أتراحًـــا وفَرْحَـــهْ

تقتـــات أشـــباحًا وآ (م) لاً بـــين نغمـــاتٍ ونَبْحَـــهْ

يلاحظ أن الشاعر استعمل الثنائيات الضدية (الجميل والقبيح) مرتين: الأولى في (أتراح X فرحة)، مع ملاحظة استعمال أتراح بصيغة الجمع والفرح بصيغة المفرد. والثنائية الثانية في (نغماتX نبحة)، والصورة هنا اختلفت، فاستعمل الشاعر نغمات بصيغة الجمع، وهي تفيد الكثرة، بينما نبحة بصيغة المفرد، كما يصور الشاعر الحاضر بصورة حسنة؛ فهو يمتاز بأنه غض والغض في لسان العرب هو: "الطري الذي لم يتغير"(ابن منظور، 1999: مادة غضض). كما استعمل الشاعر صورة ذوقية "تقتات أشباحًا وآلاً"، فالفرحة عند شاعرنا شخص يمكنه أن يقتات على الأشباح وعلى آخرين. والشاعر في كل هذا يرسم صورة لواقع الحياة التي تتجاذبها لحظات الفرح والحزن، والحقيقة والحلم، ومعايشتها بكل ما فيها من أفراح وأتراح.

ويمكن القول في ختام هذا المبحث إن الشاعر أبدع في استعمال المجردات، وتصويرها في هيئة كائنات حية يقع عليها الموت، فالثواني والخير والروح والحاضر كلها يطولها الموت مثلها مثل أي كائن حي، وقد أسهم هذا التوظيف في تعميق الدلالة ورفدها بإيحاءات ثرية ومشرقة.

النتائج:

يُعد الموت من الظواهر البارزة التي وظفها الشاعر عبدالله الفيفي في ديوانه: "إذا ما الليل أغرقني"؛ ليعبر عن الحزن الذي سيطر على نفسه نتيجة المعاناة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني، ولأن الموت حال يمر به الإنسان في كل لحظة وآن فالكثير منا يتفاجأ ويصدم برحيل عزيز عليه؛ ففكرة الموت فكرة مسيطرة على العقل الإنساني بشكلٍ عام، والعقل الإسلامي الذي يؤمن أن الحياة ليست في الدنيا، وإنما في الآخرة.

وقد خلص البحث إلى النتائج التالية:

- تجلت ثنائيات الحياة والموت في ديوان " إذا ما الليل أغرقني"؛ عبر صور التعالق والتواشج بين الموت من جهة والحياة والحرية والانتصار وبعض المجردات من جهة أخرى؛ ليكون ثنائيات ضدية خلاقة.
- تعددت مشاهد الموت في ديوان " إذا ما الليل أغرقني"، وقف البحث منها على: استشهاد الطفلة الفلسطينية، و قابيل وهابيل، واليتم، وغيرها.
- يظهر أسلوب التشخيص للمجردات في ديوان " إذا ما الليل أغرقني" بصفتها كائنات حية يجري عليها الموت كما يجري على الأحياء، وهو بهذا التوظيف يبث في المجردات روح الحياة ثم يفرغها منها؛ في سبيل بلوغ الدلالة المرجوة.
- وظف الشاعر عددًا من الألفاظ التي تدل على الموت في ديوان " إذا ما الليل أغرقني"، مثل: القدر، اليتيمة، مات، يموت.

وقد دل كل ذلك على ما استقر في نفس الشاعر من حزن، وما علق في مخيلته من صور المعاناة ومشاهد الأسى والموت التي لازمت الحياة في العصر الحديث.

المراجع:

القرآن الكريم.

ابن فارس، أ. (2002). *مقاييس اللغة* (عبدالسلام هارون، تحقيق). اتحاد الكتاب العرب.

مقدسي، أ. ا. (1952). *الاتجاهات الأدبية: في العالم العربي الحديث*، منشورات كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأمريكية.

شورون، ج. (1984). *الموت في الفكر الغربي* (كامل يوسف حسين، ترجمة)، عالم المعرفة.

الجرجاني. (2004). *التعريفات* (محمد صديق المنشاوي، تحقيق). دار الفضيلة.

كارس، ج. (1998). *الموت والوجود: دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي* (بدر الديب، ترجمة؛ ط.1). *المجلس الأعلى للثقافة*.

الجمل، ح. أ. (2003). *الموت في الشعر العباسي (332هـ-450هـ)* [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

إبراهيم، ز. (1962). *تأملات وجودية* (ط.1). دار الآداب.

بدوي، ع. (1962). *الموت والعبقرية* (ط.3). مكتبة النهضة المصرية.

الفيروز آبادي. (2005). *القاموس المحيط* (ط.8). مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

القرطبي. (1964). *الجامع لأحكام القرآن* (أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، تحقيق؛ ط.2). دار الكتب المصرية.

القرطبي. (1425). *التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة* (الصادق محمد إبراهيم، تحقيق؛ ط.1). مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع.

وحيد، ك. (2008). *عبدالله الفيفي: شاعرًا* [رسالة ماجستير غير منشورة]. الجامعة الإسلامية العالمية، باكستان.

الطباطبائي، م. ح. (2008). *ماذا بعد الموت* (ط.1). دار الصفوة.

ابن عاشور، م. ا. (1997). *التحرير والتنوير* (ط.4). دار سحنون.

أبو كراع، م. م. (2021). تصوير مشاهد الموت في شعر العصر العباسي، *مجلة كليات التربية*، (22)، 159- 176.

ابن منظور. (1999). *لسان العرب* (ط.3). دار إحياء التراث العربي.

قيدوم، م. (2014). *حضور الموت في شعر بدر شاكر السياب وخليل حاوي: دراسة تطبيقية وموازنة*، دار المأمون للنشر والتوزيع.

سلامة، ي. م. (1977). *جماعة الديوان: شكري المازني العقاد* (ط.1). مؤسسة الثقافة الجامعية.

الفيفي، ع. (1990). *إذا ما الليل أغرقني* (ط.1). مطابع الشريف.

References

The Holy Qur'an.

Ibn Fāris, A. (2002). *Maqāyīs al-lugha* (A. Hārūn, Ed.). Ittihād al-Kuttāb al-'Arab.

Maqdisī, A. A. (1952). *Literary trends in the modern Arab world*. Publications of the Faculty of Arts and Sciences, American University of Beirut.

Choron, J. (1984). *Death in Western thought* (K. Y. Husayn, Trans.). 'Ālam al-Ma'rifa.

Al-Jurjānī. (2004). *Al-ta'rīfāt* (M. S. al-Manshāwī, Ed.). Dār al-Fadīla.

Kars, J. (1998). *Death and existence: A study of conceptions of human mortality in the world's religious and philosophical heritage* (B. al-Dīb, Trans.; 1st ed.). Al-Majlis al-A'lā li-l-Thaqāfa.

Al-Jammāl, H. A. (2003). *Death in Abbasid poetry (332–450 AH)* [Unpublished master's thesis]. An-Najah National University, Palestine.

Ibrāhīm, Z. (1962). *Existential reflections* (1st ed.). Dār al-Ādāb.

Badawī, A. (1962). *Death and genius* (3rd ed.). Maktabat al-Nahda al-Miṣriyya.

Al-Fīrūzābādī. (2005). *Al-qāmūs al-muḥīṭ* (8th ed.). Mu'assasat al-Risāla li-l-Tibā'a wa-l-Nashr wa-l-Tawzī'.

Al-Qurṭubī. (1964). *Al-jāmi' li-aḥkām al-Qur'ān* (A. al-Bardūnī & I. Aṭfīsh, Eds.; 2nd ed.). Dār al-Kutub al-Miṣriyya.

Al-Qurṭubī. (2004/1425 AH). *Al-tadhkira bi-aḥwāl al-mawtā wa-umūr al-ākhira* (Ṣ. M. Ibrāhīm, Ed.; 1st ed.). Maktabat Dār al-Minhāj li-l-Nashr wa-l-Tawzī'.

Wahīd, K. (2008). *'Abd Allāh al-Fīfī as a poet* [Unpublished master's thesis]. International Islamic University, Pakistan.

Al-Ṭabāṭabā'ī, M. H. (2008). *What comes after death* (1st ed.). Dār al-Ṣafwa.

Ibn 'Āshūr, M. A. (1997). *Al-taḥrīr wa-l-tanwīr* (4th ed.). Dār Saḥnūn.

Abū Kurā', M. M. (2021). Depicting death scenes in Abbasid poetry. *Majallat Kulliyyāt al-Tarbiyya*, (22), 159–176.

Ibn Manẓūr. (1999). *Lisān al-ʿArab* (3rd ed.). Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī.

Qaydūm, M. (2014). *The presence of death in the poetry of Badr Shakir al-Sayyab and Khalil Hawi: An applied and comparative study*. Dār al-Ma'mūn li-l-Nashr wa-l-Tawzī'.

Salāma, Y. M. (1977). *The Dīwān group: Shukrī, al-Māzinī, al-ʿAqqād* (1st ed.). Mu'assasat al-Thaqāfa al-Jāmi'iyya.

Al-Fīfī, A. (1990). *If the night overwhelms me* (1st ed.). Maṭābi' al-Sharīf.